أنواع القلوب وأقسامها

القلوب علىٰ أنواع وأقسام عديدة، كل نوع وقسم لها خصائص وصفات معيّنة.

قال الإمام ابن القيّم - رحمه الله - [(١)]:

ولما كان القلب يوصف بالحياة وضدها، انقسم بحسب ذلك إلىٰ هذه الأحوال الثلاثة:

الأول - القلب الصحيح:

فالقلب الصحيح: هو القلب السليم الّذي لا ينجو يوم القيامة إلاّ من أتىٰ الله به، كما قال-سُبحانه وتعالىٰ: ﴿ **يَوْمَ لا يَنفَعُ مَـالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴿٨٩﴾** ﴾ [الشّعراء: ٨٨، ٨٩].

---

(١) انظر: «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» (ص١١ - ١٥).

فالسّليم هو السّالم، وجاء علىٰ هذا المثال؛ لأنّه للصفات، كالطّويل والقصير والظريف.

فالسّليم القلب الّذي قد صارت السّلامة صفة ثابتة له، كالعليم والقدير، وأيضًا فإنّه ضد المريض والسّقيم والعليل.

وقد اختلفت عبارات النّاس في معنىٰ القلب السّليم، والأمر الجامع لذلك:

أنّه الّذي قد سلم من كل شهوة تُخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره.

فسَلِمَ من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله. فسلِم من محبة غير الله معه، ومن خوفه ورجائه والتّوكُّل عليه، والإنابة إليه، والذل له، وإيثار مرضاته في كلّ حال، والتّباعُد من سخطه بكل طريق.

وهذا هو حقيقة العبودية الّتي لا تصلح إلاّ لله – سُبحانه وتعالىٰ – وحده[١].

فالقلب السّليم: هو الّذي سلم من أن يكون لغير الله في شرك بوجه ما، بل قد خلصت عبوديّته لله: إرادة، ومحبة، وتوكّلاً، وإنابةً، وإخباتًا، وخشية، ورجاءً.

وخلص عمله لله،فإن أحبّ أحبّ في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطَىٰ أعطَىٰ لله، وإنْ منعَ منعَ لله.

ولا يكفيه هذا حتَّىٰ يَسْلَمَ هذا حتَّىٰ من الانقياد

---

(١) قال ابن القيم في كتاب «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٠٠): ومتىٰ كان القلب كذلك فهو:

- سليم من الشرك.
- سليم من البدع.
- سليم من الغي.
- سليم من الباطل.

وكل الأقوال التي قيلت في تفسيره، فذلك يتضمنها.

والتّحكيم لكُلّ من عدا رسول الله – ﷺ – ، فيعقد قلبه معه عقداً محكماً علىٰ الائتمام والاقتداء به وحده، دون كل أحد في الأقوال والأعمال من: أقوال القلب: وهي: العقائد. وأقوال اللسان، وهي: الخبر عمّا في القلب. وأعمال القلب: وهي الإرادة والمحبّة والكراهة وتوابعها. وأعمال الجوارح.

فيكون الحاكم عليه في ذلك كله،دقّه وجلّه، هو ما جاء به الرّسول – ﷺ – ، فلا يتقدّم بين يديه بعقيدة ولا بقول ولا عمل، كما قال – تعالىٰ –: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾ [الحجرات: ١]. أيْ: لا تقولوا حتَّىٰ يقول، ولا تفعلوا حتَّىٰ يأمر.

قَال بعض السلَّف: ما من فِعْلَةٍ – وإن صغرت – إلاَّ يُنشر لها ديوانان: لِمَ؟ وكيْفَ؟ أي: لما فعلت؟ وكيف فعلت؟.

الأوّل - سُؤال عن علّة الفعل وباعثه وداعيه: هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل، وغرض من أغراض الدنيا في محبة المدح من الناس أو خوف منهم، أو استجلاب محبوب عاجل، أو دفع مكروه عاجل، أو الباعث علىٰ الفعل القيام بحق العبودية ، وطلب التقرب إلىٰ الربّ – سُبحانه – وابتغاء الوسيلة إليه.

ومحل السُّؤال: أنّه، هل كان عليك ؛ أن تفعل هذا الفعل لمولاك، أم فعلته لحظك وهواك؟.

والثاني - سؤال عن متابعة الرسول – ﷺ – في ذلك التعبد، أي هل كان ذلك العمل مما شرعتُه لك علىٰ لسان رسولي أم ، كان عملاً لم أشرّعه ولم أرْضَه؟.

فالأول سؤال عن الإخلاص، **والثاني** : عن المتابعة.

فإنّ الله - سُبحانه وتعالىٰ - لا يقبل عملاً إلاّ بهما[١].

فطريق التخلص من السّؤال الأول: بتجريد الإخلاص.

وطريق التخلص من السّؤال الثّاني: بتحقيق المتابعة، وسلامة القلب من إرادة تعارض الإخلاص، وهوى يعارض الاتباع.

فهذه حقيقة القلب الّذي ضمنت له النجاة والسعادة.

الثّاني - القلب الميت:

والقلب الثّاني: ضد هذا، وهو القلب الميت الّذي

---

(١) وهذان الشرطان (الإخلاص والمتابعة) هما الشرطان التي لا تُقبل الأعمال إلاّ بهما، ولو اختل شرط منهما فالعمل مردود علىٰ صاحبه وغير مقبول.

لا حياة به[1]، فهو لا يعرف ربه، ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه، بل هو واقف مع شهواته ولذّاته، ولو كان فيها سخط ربه وغضبه، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه، رضي ربه أم سخط.

فهو متعبد لغير الله، حبًا، وخوفًا، ورضًا، وسخطًا، وتعظيمًا، وذلاً.

إن أحبّ أحبَّ لهواه، وإن أبغض أبغض لهواه، وإن أعطىٰ أعطىٰ لهواه، وإن منعَ منعَ لهواه. فهواه آثر عنده وأحبّ إليه من رضا مولاه.

فالهوىٰ إمامه، والشّهوة قائده، والجهل سايسه، والغفلة مركبه.

فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدّنيويَّة معمور،

---

(١) **لا حياة فيه**: أي أعرض وابتعد عن فعل الخيرات، وغاص وتوغل في الشر والمحرمات حتىٰ أصابه اليأس من قبول الحق والعودة إلىٰ الطاعة.

وبسكرة الهوىٰ وحب العاجلة مغمور. يُنادىٰ إلىٰ الله وإلىٰ الدَّار الآخرة من مكان بعيد، فلا يستجيب للناصح، ويتبع كل شيطان مريد. الدنيا تسخطه وترضيه. والهوىٰ يُصِمُّه عما سوىٰ الباطل. فهو في الدنيا كما قيل في ليلىٰ:

عدو لمن عادت، وسِلْمٌ لأهلها
ومن قرَّبت ليلىٰ أحبّ وأقربا

فمخالطة صاحب هذا القلب سَقَمٌ، ومعاشرته سُمٌّ. ومُجالسته هلاك.

الثالث - القلب المريض:

والقلب الثالث: قلب له حياة وبه علّة. فله مادتان، تمد هذه مرة، وهذه أخرىٰ، وهو لما غلب عليه منهما؛ ففيه من محبة الله والإيمان به والإخلاص له، والتّوكّل عليه: ما هو مادة لحياته.

وفيه من محبة الشّهوات وإيثارها والحرص علىٰ تحصيلها، والحسد والكبر والعجب، وحب العلو في الأرض بالرياسة: ما هو مادة هلاكه وعطبه.

وهو ممتحن من داعيين:

- داعٍ يدعوه إلىٰ الله ورسوله والدَّار الآخرة.
- وداعٍ يدعوه إلىٰ العاجلة.

وهو إنّما يُجيب أقربهما منه بابًا، وأدناهما إليه جوارًا.

فالقلب الأول: حيٌّ مُخبتٌ ليِّن واعٍ.

والثاني: يابسٌ ميّت.

والثالث: مريض، فإمّا إلىٰ السَّلامة أدنىٰ، وإمّا إلىٰ العطب أدنىٰ.

آية كريمة تجمع القلوب الثَّلاثة:

وقد جمع الله - سُبحانه وتعالىٰ - بين هذه القلوب الثلاثة في قوله:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ من رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ من رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٤) ﴾ [الحج: ٥٢ - ٥٤].

فجعل - سبحانه وتعالىٰ - القلوب في هذه الآيات ثلاثة: قلبين مفتونين، وقلبًا ناجيًا.

فالمفتونان: القلب الَّذي فيه مرض، والقلب القاسي.

والنّاجي: القلب المؤمن المخبت إلىٰ ربّه، وهو المطمئن إليه الخاضع له، المستسلم المنقاد.

وذلك: أنَّ القلب وغيره من الأعضاء يراد منه أن يكون صحيحًا سليمًا لا آفة به، يتأتَّىٰ منه ما هُيِّئَ له وخُلِقَ لأجله.

وخروجه عن الاستقامة إما ليُبْسِه وقسَاوته. وعدم التَّأتِّي لما يُراد منه كاليد الشّلاء، واللسان الأخرس، والأنف الأخشم، وذكر العينين، والعين الَّتي لا تُبصر.

وإمّا بمرض وآفة فيه تمنعه من كمال هذه الأفعال ووقوعها علىٰ السَّداد.

فلذلك انقسمت القلوب إلىٰ هذه الثلاثة:

فالقلب الصحيح السّليم: ليس بينه وبين قبول الحق ومحبته وإيثاره سوىٰ إدراكه، فهو صحيح الإدراك، تام الانقياد والقبول له.

والقلب الميت القاسي: لا يقبله ولا ينقاد له.

. **والقلب المريض:** إن غلب عليه مرض التحق بالميت القاسي. وإن غلبت عليه صحّته التحق بالسَّليم.

طمأنينة القلب الصحيح وعدم ضرر الشيطان له:

فما يُلْقيه الشيطان في الأسماع من الألفاظ، وفي القلوب من الشُّبه والشكوك: فتنة لهذين القلبين، قوّة للقلب الحي السّليم؛ لأنه يردَّ ذلك ويكرهه ويبغضه، ويعلم أنَّ الحق في خلافه، فيُخبت للحق قلبه ويطمئن وينقاد، ويعلم بطلان ما ألقاه الشّيطان، فيزداد إيمانًا بالحق ومحبة له، وكفرًا بالباطل وكراهة له.

ولا يزال القلب المفتون في مِرْية من إلقاء الشيطان.

وأمّا القلب الصحيح السّليم فلا يضره ما يُلقيه الشيطان أبداً.

علامات مرض القلب وصحته [١]

تعريف مرض القلب:

كل عضو من أعضاء البدن خُلق لفعلٍ خاص، به كمال في حصول ذلك الفعل منه.

- **ومرضه**: أن يتعذر عليه الفعل الّذي خُلق له، حتّىٰ لا يصدر منه، أو يصدر مع نوع من الاضطراب.
- **فمرض اليد**: أن يتعذر عليها البطش.
- **ومرض العين**: أن يتعذر عنها النظر والرؤية.
- **ومرض اللسان**: أن يتعذر عليها النطق.
- **ومرض البدن**: أن يتعذر عليه حركته الطبيعية أو يضعف عنها.

---

(١) انظر: «طب القلوب» من كلام ابن القيم – رحمه الله – جمع/ صالح الشامي (٤٣ – ٤٥).

obeikandl.com

ومرض القلب: أن يتعذر عليه ما خُلِقَ له من المعرفة بالله ومحبّته والشّوق إلىٰ لِقائه، والإنابة إليه، وإيثار ذلك علىٰ كل شهوة.

فلو عرف العبد كل شيء ولم يعرف ربه، فكأنّه لم يعرف شيئًا، ولو نال كل حظ من حظوظ الدُّنيا ولذّاتها وشهواتها ولم يظفر بمحبّة الله، والشّوق إليه، والأنس به، فكأنّه لم يظفر بلذة ولا نعيم ولا قرّة عين، بل إذا كان القلب خاليًا من ذلك عادت تلك الحظوظ واللذات عذابًا له ولابُدَّ، فيصير مُعذَّبًا بنفس ما كان منعمًا به من جهتين:

- من جهة حسرة فَوْته، وأنّه حيل بينه وبينه، مع شدّة تعلّق روحه به.
- ومن جهة فَوْتِ ما هو خير له وأنفع وأدوم، حيث لم يحصل له.

فالمحبوب الحاصل فات، والمحبوب الأعظم لم يظفر به.

وكل من عرف الله أحبه، وأخلص العبادة له ولابُدَّ، ولم يؤثّر عليه شيئًا من المحبوبات.

فمن آثر شيئًا من المحبوبات فقلبه مريض.

كما أنَّ المعدة إذا اعتادت أكل الخبيث وآثرته على الطّيّب سقط عنها شهوة الطّيّب، وتعوضه بمحبة غيره.

الإحساس بمرض القلب:

وقد يمرض القلب ويشتد مرضه، ولا يعرف به صاحبه؛ لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته، وعلامة ذلك:

أنه لا تؤلمه جراح القبائح.

ولا يوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة.

فإنّ القلب إذا كان فيه حياة تألّم بورود القبيح عليه، وتألّم بجهله بالحق بحسب حياته.

وما لجرحٍ بميتٍ إيلامُ